أنطون سعاده... فكر ينمو ويزهر لينقذ حقول الوعي من يباسٍ وتشقّق

ليلة اغتال الانحطاطُ الفيلسوف

■ ميشال نخلة*

في ليل السابع ـ الثامن من تموز عام 1949 من الزمن الرديء، اقتُرفت محاكمةٌ لمستقبل أمّة ظنّها أعداؤها منقرضة. في تلك الليلة ـ الدهر، حاصرت الفيلسوفَ جحافل الجهالة والحقد والتبعية، ودبّجت له مؤامرة أفضت إلى تغييب وجوده الجسديّ.

في قاعة المحكمة تلك كانت المواجهة. في ظاهرها، بين سعاده، باعث نهضة لا نظير لها في العصر الحديث، و«الدولة اللبنانية»، والدة الحرب الأهلية التي أحرقت البلاد بعد عقدين ونيّف. أما المواجهة الفعلية، فقد كانت بين الفلسفة والجهل، بين النهضة والانحطاط، بين الأثرة المعطاء والفردية المدمّرة... بين الشموخ والخنوع.

لم تجترح مخيلة ممثل «دولة الاستقلال» مقدّمة لمطالعته «الحقوقية» إلا اقتباس أبيات شعريةٍ تعبّر عن أنانيته الوضيعة، التي لا ترى في كل ما يقوم به العمالقة إلا مشروعاً شخصياً بأبعاد فردية وأهداف ضيقة.

بدأها بصدر البيت الأول، «بكى صاحِبي لما رأى الدرب دونه»... وختمها بعجز البيت التالي: «نحاول ملكاً أو نموت فنُعذرا»!

هكذا، وبسطحية مطلقة، كان سعاده، بالنسبة إلى أقزام النظام المسخ، صاحب مشروع شخصيّ. كان «يحاول ملكاً أو يموت فيُعذرا».

سعاده المفكر والفيلسوف وعالم الاجتماع ومؤسّس النهضة وقائدها ومطلق مشروع التغيير الثقافي في سوريا الطبيعية، ومنها إلى العالم العربي، استحال مغامراً سياسياً «يحاول ملكاً». وقد قرّروا له الموت لكي «يُعذرا».

إننا لنظلم مخلوقات مثل تلك لو طلبنا منها أن تنظر عبر قيم لم تنشأ عليها: القومية... العزّ... نكران الذات!

في تلك الليلة الطويلة، احتشدت حول سعاده نفوس صغيرة تنوء تحت العقائد الكبيرة، فتشعر بخطرها عليها وتغتالها. في تلك الليلة، كان يهوذا وكان قيافا وكان بيلاطس البنطيّ وكلّهم يصرخون: اصلبوه! اصلبوه!

وهكذا كان.

مدرسة الفلاسفة هذه خرّجت أبطال هذه الأمة من أمثال عساف كرم و ميشال الديك ووجدي الصايغ وسناء محيدلي وخالد علوان وكلّ الخالدين الذين صنعوا قافله شهداء النهضة.

أما سبط الأقزام ذاك، فقد أنتج العملاء والجواسيس والخونة والمرتهنين والفاسدين الذين يبيعون كلّ يوم هذه الأمة بما تيسر من فتات الفضة أو أقلّ.

في الليلة الدهرية تلك، غدر الخنزير البرّي مرّة أخرى بآدون... فنزف آدون حتى النهاية، وسقى أرض وطنه بدمائه فاستحالت حقولاً من شقائق النعمان.

*عميد الثقافة والفنون الجميلة في الحزب السوري القومي الاجتماعي

في استعادته فعل إحياء

■ ثيرا يمّين*

كيف لوطن أن يجلد نفسه من خلال إعدام مَن استنهض العقل والوعي وأسّس لثقافة الانتماء إلى الأرض؟ كيف لوطن أن يكفر بالإنسانية ليعتنق التعصّب؟ كيف لوطن أن يخلع الإيمان ليرتدي عباءة الدين المشوّهة؟

أسئلة لطالما طرحناها وعبرت، إنما اليوم أضحت أمراً واقعاً بكلّ ما يحمله واقع اليوم من ظلم وظلامة، وهذا ما يدفعنا خائفين تائبين إلى فتح عنابر الفكر، فنستعيد أنطون سعاده ونعيد قراءته، كمن يتلو فعل ندامة على ما ارتكبناه من تقصير ومن ادّعاء.

اليوم نستعيده أقوالاً ومبادئ، نستعيده إيماناً وعلمانية، وفي استعادته فعل إحياء وتأكيد أن الذي أُعدِم هو الشخص، فيما الفكر نما وتنامى، واليوم يزهّر لينقذ حقول الوعي من يباس وتشقّق، وسهول الإيمان من تكفير وتعصّب زمن ضرب القومية والهوية تبعاً لما قاله سعاده عن «حركة التفكير الرجعي الذي يغذّيه عدد من المفكّرين الذين خلطوا الوطنية والقومية بالدين» في كتابه «الإسلام في رسالتيه المحمدية والمسيحية». ولأن ما يميّز المفكر قدرته على الاستشراف، يفاجئك سعاده. ويوجعك عدم القدرة على الاستدراك بما يشبه الندب والرثاء على ملك فقدته من جهل قصدته. بقوله سنة 1937 «إن العصبية الوهابية تنذر الشعوب حول بلاد العرب بخطر حرب مداهمة».

وهكذا، نحن فرّطنا بفكرٍ يبني لنصل إلى تفكير يدمّر. اقتتلنا على السماء لنفقد الأرض. سلّمنا الهوية حين سلّمنا فلسطين. وعلى قول سعاده في مقال له سنة 1948 «كان إفلاس العروبة في فلسطين إفلاساً كاملاً، باهراً، نادر المثيل»، واستبدلنا القومية بالدين، فيما الصهيونية ليست ديناً، بل مشروع قوميّ تحميه دول طامعة ولا يمكن مواجهتها إلا بقومية مؤمنة بأرضها، ولذا عانينا بالأمس من صهيونية مسيحية في بعض الغرب، ونعاني من صهيونية عربية هي الأخطر اليوم، وبلبوس آخر منسوج من فكر «القاعدة» ومسوخها.

ولذا، فإنّ تاريخ إعدام سعاده ذات تموز في 1949، أمرٌ بديهيّ، إذ إنّه جاء بعد سنة على اغتصاب الأرض، فكان لا بدّ من اقتلاع الفكر!

ويبقى، ليس بالضرورة أن تكون قومياً بالمعنى الحزبيّ لتغني فكرك وترفع منسوب الوعي لديك بأنطون سعاده. كما أنّ ليس كلّ قومي حزبي هو قارئ جيّد لسعاده، ففي ذكرى إعدامه نستعيده مفكّراً على مساحة العالم العربي، وعسانا نعتبر!

*عضو المكتب السياسي في تيار المردة

كامل حتى آخر الموت

■ د. منير سعيد مهنا*

لا بدَّ أن نعترف أن ريشة الضوء كانت في البدء ترسم فضاءً من رؤى. وأنّ السفر في ذلك التيه كان صلاةً تُلهمُ إرادة المؤمنين. وكان على وعده، سيّد المسافة بين حالين: عطش الأرض إلى معناها، وتوق أسرار النفوس إلى ماء السماء. على شفتيه نهض اليقين من ذاكرة التاريخ، وأرتعشت في جسد الكلمات تحوّلات، وأمتلأ النقاء بفيض الحقيقة ليهدر الصوت بالفرح ويقول: «لا خلاص لنا إلّا بالقوة المنظّمة، أيتها الشبيبة السورية...إلى الأمام». ولأنه عاشق من طراز حياة، ترك للحبّ أن يبتكر اسمه، فكان أبجديةً من فداء، ومنارةً من عطاء، وحرّيةً من سناء، وكان اسمه أنطون سعاده. ذلك الاسم، كان أوّل النبض في شهقة فجرنا، تبعناه وتنفّسنا بهاء اليقظة على حقيقة هي «من نحن؟». ذلك الاسم، كان أوّل النطق في حكمة مصيرنا، سمعناه وانطلقنا في دروب الحقّ نجوبها بطولات مؤيدة بصحة العقيدة.

ذلك الاسم، كان نسب الإيمان إلى الروح في قداسة الإنسان، آمنّا به فأشرقت نفوس توّاقة إلى كل حقّ وخير وجمال. ومن ذلك الاسم تعلّمنا كيف ينسكب الحبّ على كلّ جرح، فيتبلسم. وكيف يكون المجد فاتحة الوعد وخاتمة الكلام.

وفي ذلك الاسم اجتمعت فرادة تؤاخي بين ذوات تجانست في إيقاع ذات واحدة، فكانت كلٌ في واحد، وواحدٌ في كلّ.

أنطونَ سعاده، أنت اليوم أقرب ما يكوّن إلينا بكلّ ما أعطاه عقلك الفذّ من أفكار ومفاهيم في عقيدة لم تكفّ عن إيضاح الرؤى. وأنت اليوم أصدق ما نصغي إليه بكلّ ما صاغته كلماتك من بيان القول وفصل المقال. وأنت اليوم أبهى ما نتوق إليه في نُبل ما مارسته في وجودك من سلوك ومواقف. في ذكرى الثامن من تمّوز، تنحني لك النهايات والبدايات، أنت أيها الذي مدّ معناه على كلّ غياب ليصير بوصلة الجهات... والحياة. لم تكن فينا إلّا كاملاً حتى آخر الموت، أليست الشهادة هي كمال الحياة خارج رهان الموت؟

*باحث لبناني

هكذا أنظر إلى أنطون سعاده

■ محمد علي شمس الدين*

الصبيّة التي خاطبتها في قصيدة «تجلّيات الورد والحمى» هي سناء محيدلي:

يا سيدتي
للورد والحمى لون واحد.

وسناء محيدلي هي صبغة التراب والفكرة. أما التراب فهو تراب قريتها في الجنوب «عنقون»، وأما الفكرة فهي تلك التي أطلقها أنطون سعاده.

كان الرجل مؤثراً في فكره وسلوكه الثوري لدرجة أن سناء محيدلي وجدت من جرّاء ذلك، من جرّاء اصطدام وجودها بالمحتل «الإسرائيلي» على أرض واحدة هي أرضها (الجنوب). وفي هذا العمل الخارق، أن تفجّر صبيّة سمراء جميلة، جسدها في الدبابة «الإسرائيلية»، رمز لا مثيل له للفكرة والروح والقصيدة.

أما الفكرة التي أسّس عليها أنطون سعاده نظرته في الصراع، فكانت أن جوهر هذا الصراع الآن هو «إسرائيل»، وأما الروح فهي الروح القومية المؤسسة على قدر جغرافي وقدر تاريخي معاً (في سورية) وهو قدر مقاومة.

أمّا القصيدة، فهي إدارة ذاك المركب الرائع (الجسد الأنثوي) الذي قادته سناء محيدلي بوعي الربّان وهداية الفكرة ليرتطم بجبل الملح «الإسرائيلي» فيذيبه.

هكذا أنظر إلى أنطون سعاده، كأب من آباء المقاومة.

*شاعر لبناني

صاحب الرسالة

■ علي الأحمد

أنا على يقين أن المشروع القومي بصيغته الجديدة بمعنى (المشروع القومي الحضاري المتطوّر) هو المشروع الوحيد الذي يمكنه إنقاذ المنطقة ككل. والدليل على ذلك أن «إسرائيل» عدوّ هذا المشروع ذي الأحقية بالحياة، ولأنه المشروع القومي الشامل كلّ شرائح المجتمع وفئاته، وهو المشروع الحامل الثقافة السورية. فلا حياة في المنطقة إلا بإعادة استنهاض هذا المشروع، ولا مشروع آخر له الطبيعة الجامعة نفسها، لأن طبيعة كل المشاريع الأخرى، طبيعة تقسيمية. فالمشروع القومي هو بالضرورة المشروع الأوحد من وجهة نظري، الذي يمكنه إنقاذ المنطقة، من دون أن نقصي الآخرين، لأن عقل الإقصاء عقل غير سليم.

المشروع «الإسرائيلي» التقسيمي الذي نراه اليوم ينفّذ على أرض الواقع، أوجدوه ليفتّت المنطقة، أما غاية المشروع القومي، فهي وحدوية ونهضوية. وبالتالي، لا تخاف «إسرائيل» سوى نقيضها. لذلك، تخاف «إسرائيل» من نجاح المشروع القومي وفلاحه.

إنّ فكر أنطون سعاده، الذي نحتفل بذكرى استشهاده اليوم، هو إحياءٌ للفكر السوري. لذا، أنطلق من إيماني بفكري القومي ـ العربي، وأعتقد أنّ أنطون سعاده تلمّس حقيقة ليّ المشروع النهضوي في المنطقة، وهو مشروع حيّ لا شعاراً فقط، لا بل إنه ممارسة على الأرض. والرسالة السورية التي وصلت إلى كلّ أصقاع الأرض، هي رسالة حيّة، ونحن نراها ثقافة وقدوة لكلّ العالم من العالم العربي إلى أميركا اللاتينية وآسيا وأوروبا. ونحن نحملها فكراً ونهجاً.

أنطون سعاده.. كم نحتاجك الآن

■ سامي مهنا*

لقد أُغتيل أنطون سعاده، لأنه أسّس نهضةً فكريةً، قوميةً إنسانية، تصادمت، مع الكيانات «المستقلة» التي استقلّت من الاستعمار شكلاً، وبقيت مرتبطةً بعقلية الاستعمار، وبقايا الاستعمار، ومصالح الاستعمار ونهجه وسيطرته.

أنطون سعاده سعى إلى خلق الشخصية العربية، التي تُحْيي المنجزات الحضارية، وتواجه تحدّيات العصر، بروح محلقّة بأبعد مما يرسمُ لها أعداؤها، والمتواطئون معهم من أبناء العرب وزعاماتهم.

أنطون سعاده، أراد رفع العرب، من حضائر القبيلية والطائفية والمذهبية، إلى مشاعر العروبة الموحِّدة والموحَّدة، ومحاضر الإنسانية، التي ينخفض منسوبها، كلّما تأججت في الإنسان النزعات والنعرات المذهبية والتعصبات الدينية والقبلية المتقوقعة بجميع أشكالها ومسمياتها. ونستذكر في هذا السياق، مقولته الشهيرة: «يجب أن نقف في العالم أمةً واحدة، لا أخلاطاً وتكتلات متنافرة النفسيات». وفي زمننا الراهن، الذي يُذبح فيه الإنسان باسم الله، وتُذبح الأوطان باسم العقائد، وتُذبَحُ الأرض باسم السماء، تتحقق مقولة سعاده: «إنّ اقتتالنا على السماء أفقدنا الأرض». فكم نحتاج في هذا الزمن القاتم، إلى قائد فكريّ وسياسيّ مثل أنطون سعاده؟ وكم نحتاج إلى إحياء هذا الفكر، وتذويته ونشره.

لقد حلم مؤسّس الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه، ورائي الفكر القومي، بأمّة سورية كاملة المقوّمات، كلُبنة في بنيان القومية المتكاملة. أمة يُبنى فيها الانسان بموازاة بناءً المشروع السياسي الوطني والقومي. لقد حلم سعاده وأسس لنهضة فكرية ثقافية، حلم بأمة قوية منتصرة على المشاريع المضادة لها، وعلى رأسها المشروع الصهيوني. حلم بشطب الطائفية والمذهبية، والتعصّب الديني، من قاموس الوجدان العربي، حلم بأمة تحْيي أمجادها وتبني مجدها المتجدد الحداثيّ المعاصر. المؤامرة التي أدّت إلى اغتيال أنطون سعاده، استهدفت هذا الحلم، واستهدفت مشروع القومية السورية، ومشروع التحرّر من الاستعمار البديل، ومقاومة بدعة «سايس ـ بيكو»، ومقاومة المشروع الصهيوني، والتبعية العربية، والرجعية، وفسيسفاء الشعوب غير المنسجمة، لا بل المتناقضة، والتي تشوّه لوحة الأوطان وروح الإنسان. ولو لم يكن عظيماً لما تآمرت عليه أنظمةٌ ودولٌ كبرى مجتمعة، فأين نقف الآن من هذا الفكر وهذا المشروع؟ وكم تخلّفنا عنه بعدما مرّ أكثر من ستة عقودٍ على اغتياله المشؤوم؟

واقعياً، نحن في مرحلة الأوطان المدمّرة، والشعوب المتمزّقة، والمؤامرات الخارجية والداخلية على أوطاننا. وفلسطين لا تزال تحت الاحتلال، ولا تزال اللغة السائدة في السياسة اللبنانية، لغة الطوائف. نحن أمام خطر نشوء دوليات مذهبية، لم يتمدّد حلم سعاده كما حلم عندما قدّم حياته قرباناً مستخِفاً بفناء جسده، أمام حلم بقاء الفكرة وتجسيدها.

إنما، وعلى رغم سوداوية الحالة الراهنة، تعلّمنا من فكر أنطون سعاده، أن البقاء للفكرة الجبارة. فعلى رغم كلّ ما يحدث في العالم العربي، إلا أن النهضة كما علمّنا التاريخ تنبثق من نقطة الاشعاع الصغيرة المتمركزة داخل الدائرة المضادة لها، وهذا النور الخافت في اللوحة السوداء العامة، سيتسع، ويتمدّد حتى يتمركز، وستتداعى الحالة الظلامية بفكرها وسلوكها وقوتها السياسية والعسكرية، لأن النهضة طاقة لا تفنى. فإنّ الرّوح التي حلم بها أنطون سعاده والمؤمنون بهذا الفكر باقية، وستنبعث وتتجدّد، طالما، بقي الحلم، وبقي المشروع وبقي من يؤمن به، ساعيا إلى تحقيقه. وستتردّد دوماً في نفوسنا، صدى كلمات الشهيد أنطون سعاده الأخيرة: «تحيا سوريا»، وستحيا سوريا، عندما يحيا صوت الإنسان فينا، وصوت النهضة. وحينئذ، سنقف في أنفسنا، ونقف في العالم أمةً واحدة، لا أخلاطاً وتكتلاتٌ متنافرة النفسيات، كما قال القائد الشهيد، أنطون سعاده.

*شاعر من فلسطين، ورئيس الاتحاد العام للكتّاب العرب الفلسطينيين (48)

جريمة شارك بها جميع أعداء هذه الأرض الخيّرة

■ سهيل العيد

عند الحديث عن سوريا... يتراءى لبعض السوريين خريطة سوريا «سايكس ـ بيكو». والبعض يرونها خريطة بعمق سوريا الأمة والحضارة العظيمة، الممتدة من الخليج إلى سيناء مروراً بالعزيزة فلسطين والأردن وبلاد الرافدين، وصولاً إلى قبرص وكيليكيا ولواء اسكندرون الحبيب السليب.

نعم إنها سوريا الواقعية والحقيقية التي أصبحت جغرافياً نوعاً من الخيال. لكنها ما زالت موحّدة بشراً ومجتمعاً وتراثاً وإرثاً حضارياً وتاريخاً.

سوريا التي امتازت بمؤشّرها الحضاري المتواتر صعوداً عبر آلاف السنين. حضارات تضاف إلى حضارات. آراميون كنعانيون فينيقيون غساسنة تدمريون سريان آشوريون وكلدان وبابليون، لم يتنكر أحدهم بالانتماء والولاء للأمة السورية، فمنذ ما قبل الإله السوري بعل، كلهم سوريون.

وعند الحديث عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي آمن إيماناً عميقاً بكلّ ما ورد آنفاً عن وحدة مقوّمات سوريا الأمة، واعتبرها مبدأ وطموحاً وغاية وهدفاً نبيلاً، كان ينتابنا الفضول المصحوب بالريبة والحذر الشديد!

نعم، هو الشعور الذي كان يتملكني أنا وكثيرين في بداية عمر الشباب، مع أن المنتمين إلى هذا الحزب كانوا نخبة من المتفوّقين علمياً والمميزين في جميع المجالات نجاحاً وأخلاقاً واستقامة!

كنّا نسمع عنهم ونعرف بعضهم معرفة عامة، ولم تسنح لي فرصة الالتقاء بأيّ منهم على انفراد، ولم أسعَ إلى ذلك. مع أن بعضهم كانوا من أساتذتي المميّزين.

وعام 1973، كنت في الصف الثانوي الثاني. التقيت مدير المدرسة الابتدائية حينذاك، وأبدى رغبة بزيارتي بحكم القربى والجوار. ولمّح لي أن تكون جلستنا على انفراد، فرحّبت به. كنت أعرفه معرفة عامة اجتماعية، وكانت علاقاتنا العائلية معه ومع أسرته ودّية. لكنه أراد في هذه الزيارة أن يعرّفني إليه من الناحية الفكرية والسياسية، فهو من قدامى السوريين القوميين، ومناضل مؤمن بوحدة سوريا الطبيعية أرضاً وشعباً، ويعتبرها أمة متكاملة تملك كلّ مقوّمات الأمم العظيمة، ومؤهلة لإحياء مجدها من جديد.

لقد كانت مقدّمته مقنعة إلى حدّ كبير. وكان مثقفاً واسع الاطّلاع صريح الآراء واقعيَّ الطرح، وكلُ آرائه مدعّمة بالبراهين.

ثمّ شرع بعدئذٍ بموضوع الزيارة المباشر قائلاً: «في الحقيقة نحن نبحث عن النخب في كلّ الأجيال. وقد سمعت من أساتذتك عن تميّزك واتّقاد ذهنك ووعيك. ولمست فيك شخصية قيادية. وقد أتيت متمنّياً أن تكون واحداً من أبناء سوريا الكبرى التي نطمح إلى إحياء مجدها». لم أعطه ردّاً فورياً على رغم قناعتي بطرحه وثقتي بشخصه وصدقه ورفعة أخلاقه.

وقبل أن يستأذن بالمغادرة، أبلغني أنه لا يستطيع تزويدي بكتب ومنشورات الحزب لأنها تشكل خطراً عليّ. لكنه أعطاني مجموعة من الأوراق المنسوخة بخطّ يده، كان يخبئها في جيبه الداخلي وكأنها من الممنوعات والمحرّمات.

شرعت أقرأها باهتمام وتركيز، وكلّما قرأت أكثر كنت أتشوّق لمعرفة المزيد. فكلّ ما فيها سوريّ يخاطب ضمائر السوريين كل السوريين وأحاسيسهم. خصوصاً تلك المبادئ الوطنية السامية والحكم والأقوال التي وضعها ذلك المفكّر السوري الأصيل والزعيم الحكيم. وجدت فيها دولة المواطَنة والمساواة التامة في الحقوق والواجبات. وجدت فيها الديمقراطية والعلمانية بروح ونَفَس سوريين أصيلين. وجدت فيها التفاني في حبّ سوريا والسوريين. لمست فيها ترفّعاً نبيلاً ـ غير مصطنع ـ عن التمييز العرقي والديني والطائفي. وإن كان فيها انحياز صريح لمحبة سوريا والسوريين.

التقيت المدير في المرة الثانية، ولم أك أملك أيّ عذر ايديولوجي يقنعني قبل غيري في رفض عرضه، إلا الأعذار الشخصية. فقلت له: «أعلم ما الذي حدث لأستاذي فلان الذي كان الأوّل على القطر في الثانوية العامة. وكيف حُرم من البعثة لإكمال دراساته العليا في أوروبا لأنه سوريّ قوميّ». فقال لي: «انظر الى كتب وزارة التربية ومناهجها وستعرف أنه مؤلّفها». قلت له: «أعلم أيضاً ما حدث للطبيب فلان والمهندس فلان وكيف أمضيا سنوات في المعتقلات لأنهما سوريين قوميين ...». فقال: «نعم، ولهم مؤلفات عدّة وترجمات من اللغتين الانكليزية والفرنسية في مجالات الطبّ والهندسة وقدّماها متبرّعَين لوطنهم وأبناء شعبهم».

قلت له: «وأساتذة الجامعة فلان وفلان وفلان، الذين سُرّحوا تعسّفاً من عملهم لأنهم سوريين قوميين». فقال: «نعم، وما زالت كتبهم ومؤلفاتهم تدرّس في الجامعة حتى اليوم».

وأكمل: «كذلك الضباط فلان وفلان وفلان سُرّحوا من الجيش للسبب ذاته، على رغم أنهم من ألمع الضباط وأكثرهم انضباطاً وإخلاصاً وتفانياً في حب الوطن. نعم، هذه حالنا وهذا نضالنا، وقد دفعنا كلّنا أثماناً باهظة لإيماننا بسوريّتنا!».

قد تبدو هذه المقدّمة للقارئ العزيز طويلة. وقد طغت عليها التجربة الشخصية أو الجانب الشخصي. لكنني تعمّدت أن أسردها كقصة واقعية وشهادة منزّهة حيادية، عن المعاناة التي لمستها شخصياً في حياة هؤلاء السوريين الوطنيين الصادقين المخلصين ونضالهم.

ولا أخفي عليكم محاولاتي في البحث عن عيوب أو ارتباطات لهذا الحزب ومؤسّسه كحال الأحزاب والتنظيمات الأخرى. فوجدته حزباً محارباً إقليمياً ودولياً، وهذا ما أكد لي أن الحزب ومؤسسه وكوادره سوريون سوريون.

وبنظرة إلى مجريات الأحداث والتطوّرات والمستجدات في سوريا الطبيعية خلال القرن العشرين، نجد أن مؤسّس الحزب المفكر والزعيم أنطون سعاده، وقف وقفة وطنية لا تضاهى. واعتبر اغتصاب فلسطين بمثابة سلخ جزء من الجسد السوري، وقد عبّر كوادر الحزب ومناضلوه بالعمل المقاوِم البطولي ضد الكيان الصهيوني وقدّموا الشهداء والشهيدات على تراب فلسطين وجنوب لبنان.

وكذلك، كان وما زال موقف الحزب السوري القومي الاجتماعي من سلخ لواء اسكندرون عن الجسد السوري ثابتاً.

أما عن رؤيته القومية، فهي تشمل كلّ مكوّنات سوريا من دون استثناء أو تمييز. ولا يؤمن بالوحدة على أساس القومية العربية. وهذا ما ميّزه من حيث الواقعية والمصداقية وقابلية التطبيق، عن تجربة الأحزاب العروبية الشمولية، التي اعتمدت هدف وحدة «الأمة العربية»، كردّ فعل على أطروحة الإخوان المسلمين بوحدة «الأمة الاسلامية». وفي قراءة عقلانية للهدفين ومن خلال ما أثبته الواقع العملي، نكتشف أن مصطلح «الأمة العربية» مصطلح خيالي لا يستند إلى مقوّمات نشأة الدول والكيانات. فلم تَدُم الوحدة بين بين مصر وسوريا أكثر من سنتين، وقد كان لبعض كبار المفكرين المصريين رأيهم السديد. فقد وصفوا سوريا بالحضارة الموازية للحضارة المصرية عبر التاريخ. ويمكن التعاون البنّاء بندّية معها. لكن لا يمكن إلحاق دولة مثل سوريا أو ضمّها ومحو ملامح سيادتها وخصوصيتها. وهذا ما يؤكد صحة نظرية الحزب السوري القومي الاجتماعي وسداد رؤيته.

وكذلك الحال بالنسبة إلى نظرية «الأمة الاسلامية»، فهي أبعد من الخيال وتدخل في طور الوهم من حيث انتفاء مقوّماتها الديمغرافية والجغرافية واللغة والإرث والثقافة والتاريخ المشترك، بما فيها تفسير الدين وفهمه.

لست في معرض إيراد المبادئ والمنطلقات النظرية للحزب السوري القومي الاجتماعي، ولا تعداد أقوال الزعيم الحكيم وحِكمه ومأثوراته، على رغم أنها بوصلة وقبلة لجميع السوريين المخلصين. إنما أنا حريص على الادلاء بشهادتي من خارجه بحيادية وإنصاف. فمنذ تحرّر سوريا من نير الإحتلال العثماني وحتى يومنا هذا، لم تشهد مشروعاً وطنياً خالصاً نقياً يضاهي الحزب السوري القومي الاجتماعي قولاً وعملاً. وقد أثبت هذا الحزب تمسّكه بمبادئه الراسخة في المحنة التي يمرّ فيها الوطن حالياً، لأنّ الوطنيين يُعرفون وقت الشدائد.

الصورة الأخيرة التي تحضرني عند الحديث عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، قد تلخّص المشهد كاملاً. فقد كان إعدام الزعيم الوطني أنطون سعاده جريمة شارك بها جميع أعداء هذه الأرض الخيّرة، وأراد هؤلاء أن يكون إعداماً لحلم السوريين النبيل.

واليوم، ها نحن نعيش ذروة الهجمة الهمجية، لكن سوريا وطن عصيّ على الموت، فمع ولادة كلّ سوري أصيل، يتجدّد ياسمين سوريا وينشر عبق الحياة.